عراك في غير معترك
وحكايات أخرى . . .
للأستاذ محمد متولى

ذات صيف ، إذ كنت صبياً فى المدرسة الابتدائية ، وكنت فى الريف أقضى عطلتى ، صادفت الليلة الختامية للاحتفال بمولد أحد الأولياء هناك ، وذهبت أجوس خلال حلقات الذكر ليلتئذ ، فإذا (مجذوب) ناحل هزيل ، مأخوذ بشعور ما ، يهذى بما هو أشبه بالدمدمة أو « الهلمتة » منه إلى الكلام الواضح المفهوم ، بينا وقف بجانبه فتى شاب يصلح من شأنه وهو يقول له : « وحّد الله وحد الله ... » ودفعنى فضول المعرفة فرفعت قامتى القصيرة إلى الفتى وسألته : « الراجل دا بيقول إيه ؟ » فأجابنى فى ابتسام وإشفاق أنه يتكلم « اللاوندى » .

ولقد كنت أنتظر من صديقى الأستاذ زكى طليمات ، بعد أن لفتّه فى مقالى السابق إلى وجوب « موضوعية » كلامنا ، كنت أنتظر من هذا الصديق أن يكون أكثر لباقة فلا يدفعه الدكتور بشر فى المزالق فيندفع وينزلق ويتورط فى مسائل علمية وفنية ، ويشط بعيداً ، ويجيئنا بحكايات متناثرة متنافرة مشحونة بالزيف والبهرج ، حتى لقد غمُض لخبته ، أول الأمر ، يقصد بألفاظه إلى رموز خاصة بنفسه ، كما فى الصوفية ؛ وحسِبت خالته يتكلم ذلك « اللاوندى » الذى سمعت فى حلقة الذكر منذ ربع قرن من الزمان ، وجئت أردد له قول صاحبى الريفى : « وحد الله ... وحد الله ... »

* * *

كان العراك بين جبهتى بشر فارس والشاعر على محمود طه فى غير معترك ، ولكن الأستاذ زكى لم ير هذا ، لأنه لم يتفق معنا على أن « النقد الفنى » يجب أن يقتصر على تبيين قيمة « الصورة » التى يقدمها الفنان كابداع له وحده ، بخلاف ما كان بين الجبهتين من خلط وتنابذ واتهام . إنما يتصور الأستاذ أنى قصدت بتقريرى أن « العراك كان فى غير معترك » كون رواية « مفرق الطريق » تافهة ممسوخة ، وأنا لم أردْ غير ما رأيته من ضلال الجماعتين « أصول النقد » فليس ذنبى أن قصر فهمُ صديقى دون إدراك غرضى فى تلك العبارة ، وهو قريب بيّن

وأحببت أن يكون العراك فى معترك ، فبينت أن رواية بشر ليست من الرمزية فى شىء ، كما دلّلت على أن الدكتور المؤلف لا يفرق بين « رموز الصوفية » و « رموز الفن » ، مع أنهما عمليتان مختلفتان « سيكلوجياً » ؛ ولكن بشراً وزكيًّا عقدا جلستهما وقررا كتابة الرد على هذا الرأى ، ولعل لذة المعرفة فاتتهما ، أو لعل غريزة « حب الغلبة » غلبتهما فحجبت جمال المعرفة عن بصيرتهما ، فنسيا موضوع الكلام وراحا يتفلسفان ويتماالان !

وحدّ الموضوع كما قلنا - وكما يقرر « ريبو » - هو أن الرمزية فى الفن « تستخف بتمثيل العالم الخارجى تمثيلاً صادقاً ... فإذا الناس والأشياء تمر دون أن تنطبع بزمان أو مكان ، ولكنها تمضى وما ندرى أين حصلت ولا متى ؛ فلا هى (تمت) بصلة لأى بلد ، ولا هى تمثل عصراً بذاته » . والدكتور بشر يعرض علينا ، فى مفرق الطريق ، صورة عملية « تجرى حوادثها فى مصر فى أحد شوارعها ، أمام صف من المنازل المنخفضة على

من السهولة بحيث يمكن أن يصير المرء بها وفيها خبيراً . ولهذا لا أفهم كيف يستطيع مواطنوك أن ينقدوا سياسة الحكومة وأن يوجهوها

المربى : إن المواطنين لا يستطيعون طبعاً أن يفهموا دقائق الأمور ، ولا أن يحددوها أو يثيروها ، ولكنهم يستطيعون أن يقرروا اتجاهات السياسة العامة التى يجب أن تتبعها الحكومة

أفلاطون : أخالفك فى هذا . لأن الاتجاهات العامة من المكان والأهمية بحيث تحتاج إلى فيلسوف لحل معضلاتها التى هى معضلات الحرب والسلم ، والاعتداء والدفاع ، ولكن مهما يكن من الأمر فلنترك بحث السياسة الخارجية ، ولنرجع إلى موضوع إصلاحاتكم فى التربية ونظمها . لقد ذكرت فى حوارك أن غايتكم المثلى فى التربية هى أن تكون عامة لكل أفراد الشعب ، ولعلى لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت إنك تريد « أن تكون فرص التربية والتعليم للجميع سواء » . فما الذى تريد أن تصل إليه بهذا كله ؟!

(يتبع) عبد العزيز عبد المجيد

شكل المنازل التي تصاب في الأحياء القديمة » . فهل حاول أحد الفارسين أن ينقض هـذا التحديد الذي يجرد مسرحيتهما من صفة الرمزية ؟ !

اللهم لا شيء من ذلك ، ولـكن بشراً يدفع زكياً ليقول أشياء لامعة ، ويذكر أسماء رنانة بينها وبين مسئلتنا من البعد قدر ما بين الدكتور بشر ومفهوم الرمزية في الفن . وهذه الأشياء هي الحـكايات التي استنبتها الفارسان على هامش المسئلة ، والتي أتناولها الآن بالتفنيد للتدليل على ما ذهبت إليه من أن صاحبينا يجترئان ويتأملان كتب الفلسفة والفن بالاجتهاد ، ويقرآنها كما يقرآن روايات الجيب ـ مثلاً ـ فيزلآن ويقعان فيما يجب ألا يقع فيه المخلصون في طلب المعرفة

وإذن ندور حول الموضوع تمشياً مع منطق الأستاذ ظليات ونعتذر عن هذا اللغو لأستاذنا صاحب الرسالة ، ونعده ألاّ نعود إلى الـكلام « خارج الموضوع » مهما يقل بشر أو زكي أو غيرهما

* * *

١ — استهلّ زكي مناقشته بنص للمستشرق « بروكلمن » وساقه برهاناً على أن مسرحية بشر عمل أدبي ، وترجمة ذلك النص الدقيقة هي « نحن هنا في بداية تطور هو تجديد يمكن أن يؤثر في الحياة الأدبية ، بعد نضال عنيف » وهذا النص بذاته برهان على أن الرواية « محاولة » فجة ، إذا صدقنا أن « بروكلمن » يمكن أن يقدم « دراسة » لعمل أدبي في بعض صفحة من القطع المتوسط ، ولـكن الواقع أن هذا المستشرق يعرض المسائل عرضاً تاريخياً بسيطاً ، ثم هو كالأستاذ زكي لا يحسن النظر في الأشياء ويتورط في أحكامه ، لأن بشراً قدم روايته عملاً مطبوخاً وغير ناضج عام ١٩٣٨ فيما أذكر ، بعد أن قدم توفيق الحكيم « شهرزاد » عام ١٩٣٤ مثلاً رفيعاً للأدب الرمزي ، ليس في أدبنا وحده ، ولـكن في جميع الآداب ، فكيف لا نصف « بروكلمن » بالغفلة إذا اعتبر مفرق الطريق « بداية تطور » مع أننا قبل ذلك وصلنا إلى غاية الغاية برواية توفيق الحـكيم ؟ !

٢ — والمسألة عند زكي « محصورة فيما إذا كان بشر قد استلهم في كتابة مسرحيته ... من (كذا) الفيلسوف « كانت » . أو هو استوحى فلسفة برجسون ، وهذا الحصر مرفوض لأنه لا معنى له عند من « يشعر » بمعنى الإيحاء أو الإلهام و « يعرف » طريق النظر في أية فلسفة ، وكذلك هذا الحصر ليس إلا لفاً حول الموضوع ورجوعاً إلى « الخناقة على اللحاف »

٣ — والأستاذ زكي يصف أسلوبه بأنه « أوضح وأدنى إلى الثقافة العربية » وأنا لم أعرف أني « مستشرق » وإذا كانت المصطلحات الفلسفية غريبة على ثقافته ، فليس هذا من خطئي ولا هو مما يدعوني إلى أن أسوق له عبارات مبتذلة كي يفقه قولي . وعلى أي حال ، كنا نحب أن نحمد الله لأنه « لم يغب عن ذهن زكي » التفريق بين « الصورة » و « الفكرة » في الفن ، لولا أنه عاد فقال إن « اقتصار الفن على الصورة أو الشكل لا يعني أن يكون هناك فن رفيع وفن رخيص ، وفن أصيل مبتكر وفن متبع مقلد ، وشاعر يسرق وكاتب يستمد » قال هذا فبدا لنا عقله كصندوق حروف ، ورأيناه هو كأنه « مطبعجي » يرص الحروف وهو لا يقصد من ورائها إلى معنى في نفسه محسوس ، ذلك أن الفن يجب أن يكون رفيعاً ، وإلا فهو تهريج لا نسميه فناً ، ويجب أن يفيض عن الروح طريفاً لطيفاً ، وإلا فهو شيء صناعي Technique لا حياة فيه ؛ أما عبارة الشاعر الذي يسرق والـكاتب الذي يستمد ، فقد نرجو إعادة حروفها إلى « الصندوق » إذا كان ممكناً ، فلا يقرؤها الناس فيحيئوا الظن بصديق المعروف من أهل الفن

٤ — ويحدثنا الأستاذ ظليات عن (شرائط الفن المقطوع بها) في المسرحية ، ويحددها بأنها (مراعاة بلاغة المرض لحوادثها وجودة الحبك لمشاهدها ، وبراعة الحوار ولطفه ، وعمق التفكير وانسيابه إلى أعماق النفس يكشف عن خفاياها) ؛ وهذا الحديث يذكرنا بذلك الطراز من نقاد المدرسة القديمة الذين يحتفظون بعدد من (الـكليشيهات) يضيفونها إلى أسماء الشعراء والأدباء ، من غير نظر ولا تأمل ، فإذا الفرق بين شاعر وشاعر أن هذا (جزل الألفاظ) ، وأن ذاك (سلس الأسلوب) ، وأن الآخر (حسن الديباجة) . وزكي معذور في هذا ، لأنه يتصور الفن تصوراً (ميكانيكياً) لا أثر فيه للعاطفة ، فيبتدع تلك « الشرائط » ويقطع بها وحده ، ويحاول أن يفرضها علينا قبل أن يطبقها ، ولو استطاع تطبيقها لما انطبقت إلا على الرواية الفاسدة التي لا يمكن أن تصدر عن روح فنان ، وإنما يخرجها (مصنع تزييف)

٥ — ولقد كان الأستاذ زكي يستطيع أن يصغي بالتفلسف لو أنني أخذته إلى مجاهل ما وراء الطبيعة ، ورحت أحدثه في نظرية المعرفة عند « كانت » أو « برجسون » ، بينما نحن نتكلم في

مسألة فنية ، ولكني أردت أن أهديه سواء السبيل ، فأخذت بيده إلى علم الجمال الذي موضوعه الفن ، وبدلاً من أن يبهره هذا النور الجديد رأيته ، كالتلميذ الكسلان ، يركب رأسه ، ويأبى متابعتي ؛ بل رأيته أكثر من هذا يطالبني بأن أترك مصطلحات علم الجمال إلى ما يدعي أن رجال المسرح اصطلحوا عليه حتى يكون قولي قائماً على الدقة والإحكام في نظره . يطالبني بهذا الكفر ، وليته كان صادقاً ، فرجال المسرح لم يصطلحوا على شيء اسمه « الرمزية الفنية » ، وهذا الشيء لا وجود له إلا في « صندوق حروف » الأستاذ المخرج الممثل

٦ — وفي هذه الحزون ، يصل الأستاذ زكي إلى الهاوية السحيقة ، ويدفعه بشر ، ويسقط ، فإذا هو مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن ، ثم هو ، مع ذلك كله ، يأسف من أجلي رائياً لأني لم أتعقب « المراحل الحديثة التي مرّ بها علم النفس بعد العهد الذي ألف فيه « ريبو » ... » ولأني لم أعرف « أن علم النفس الذي أفادت منه الرمزية كثيراً قد دخل في طور جديد تبدلت على أثره أوضاع في الأدب عامة وفي الرمزية خاصة » ويعد الأسف والرثاء « يود » الأستاذ السالم أن نقف « على آراء علماء اليوم فيما كتبه « ريبو » خاصاً بالمخيلة ... وذلك كما وردت (كذا) في مؤلف كبير يدرس اليوم في جامعة السوربون بباريس » ويزيف علينا أن « وليم جيمس » يقول في هذا الكتاب : « يلوح لنا أن علم النفس عند ريبو في مسائل المخيلة والاختراع لا يزال تحت تأثير النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة » وأخيراً لا ينسى حضرته أن يصف وليم جيمس بأنه « الفيلسوف الأميركي المعاصر »

ولو أمكن إيجاد محكمة تحفظ كرامة العلم وتحاسب المستهترين بقدسيته وتعاقبهم على جناياتهم ، لو أمكن إيجاد هذه المحكمة وقدمنا لها هذا الكلام الذي يرسله صديقي زكي إرسالاً ، إذن لحكمت عليه بالحرمان الأبدي من القراءة والكتابة ، ولحكمت على الدكتور بشر بسحب شهادته بتهمة التحريض والإفساد

أما أنا فأؤكد للأستاذ زكي أني أعرف موضوعي لدرجة تسمح لي أن أصحح له ولشريكه تلك الأوهام التي يعيشان فيها ؛ فليسمع ، أو ليسمعا

(ا) « وليم جيمس » ليس معاصراً ، بل هو متوفى عام ١٩١٠ ، أي منذ ثلاثين عاماً ، بينما « ريبو » متوفى عام ١٩١٦

(ب) ألـ Traité de Psychologie (طبعة ١٩٢٣ ـ ٢٤ ذات الثلاثة الأجزاء) التي يعتمد عليها زكي وبشر أصبحت منسوخة لأنها تطبع الآن في تسعة أجزاء بزيادات وتفصيلات ، وقد ظهر الجزء الخامس منها عام ١٩٣٦ ، وظهرت قبيل الحرب أجزاء لا علم لي بها

(ج) لو أن الأستاذ زكي ذو عهد بالدراسة الجامعية لما قال إن كتابا يدرس بجامعة السوربون ، كما تقرر الكتب في المدارس الابتدائية والثانوية ، ولعرف أن أي كتاب يمكن أن يدخل الجامعة إنما ليقلب ويجرح ، حتى ولو كان مؤلفه زكي طليمات

(د) « ريبو » الذي لا يرضى زكي طليمات ، هو الذي عرف Dumas قدره فاختاره ليكتب مقدمة الـTraité ، واعترف بفضله فأهدى السفر إلى ذكراه بعد موته

(هـ) لا وجود لكلمة « المخيلة » ، ولا وجود لكلمة « الاختراع » في النص الذي ينقله زكي عن « وليم جيمس » . وإذا كان هذا النص مذكوراً في باب « الاختراع » فقد جاء في عرض « جيمس » لوصف العملية الفسيولوجية لتداعي الخواطر l'Association des Ideés عند « ريبو » (راجع ص ٢٠ في كتاب l'Imagination Créatrice) ، ولكن زكي يفتي فيما لا يدري فيضطر إلى تزييف هذا النص الذي يتعلق بمسألة « بسيكوفيزيولوجية » ولا يتعرض للظاهرة النفسية ذاتها ، والذي يدل على مكان فيلسوفنا العظيم ولكن من يقرأ ؟! قال « وليم جيمس »

La psychologie de Ribot à ce sujet nous semble encore très dominée par la conception automatique et simpliste de l'atomisme mental, bien qu'il ait insisté — ce qui le rangait parmi les novateurs à l'époque — sur ce fait que les etats associés ne sont pas juxtaposés, mais qu'ils « se modifient par le fait même de leur connextion »

(و) مفهوم علم النفس عند الأستاذ زكي شعبي خاطىء لا يزيد على ما نسمعه من بعض زبائن « قهوة بيرون » لأنه يفهم أن الرمزية « أفادت من علم النفس » والأمر بالعكس ، فهذا العلم الذي موضوعه ظواهر النفس هو الذي أفاد من وجود الرمزية .

٦ — وأنا لم أستنكر أن يحاول صديقي زكي أن يناقشني في مسائل الفن والفلسفة ، فهل هو يستكبر إذا قسرت له نصاً فلسفياً لم يفهمه فأفسد ترجمته ؟ (راجع النص الفرنسي وترجمة زكي ص ١٥٤٨ — العدد ٣٧٩ من الرسالة) رضي أو لم يرض